موضوعات القصيدة المولدية– قراءة في ديوان الثغري التلمساني

Topics of the Mouloudia poem- a reading in the Diwann al-Thaghri al-Thalamsani

خولة ميسي[1]

جامعة محمد الشريف مساعدية – سوق أهراس

k.missi@univ-soukahras.dz

تاريخ الوصول: 2019/03/14 القبول : 2021/02/02 النشر علي الخط: 2021/06/15

Received:14/03/2020 Accepted:02/02/2020 Published online: 15/06/2021

ملخص:

إن الحديث عن المولديات يفرض نفسه على دارس الأدب المغربي ؛ لأنها فن من الفنون الشعرية التي انتشرت في المشرق و المغرب ، فجاءت محلية المنبت و المنشأ . كما اهتم بها العديد من الشعراء الذين يقولون قصائدهم بمناسبة المولد النبوي الشريف ، على غرار الشاعر **أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي الأندلسي الثغري التلمساني** ، فجاءت نمطا فنيا متطورا للقصيدة المادحة؛ حيث ظلت القصيدة المولدية لسنوات عدة ، محل اهتمام الدارسين و الباحثين و النقاد في بلاد المشرق و المغرب .و رغبة منا في العودة للتنقيب في هذا التراث المغربي القديم و البحث فيه ، حاولنا جاهدين من خلال هذا المقال التعرض لتاريخ ظهور هذا الفن الشعري ، و المراحل التي مر بها ، لذلك طرحنا مجموعة من الإشكاليات يسعى المقال للإجابة عنها أهمها: ما المقصود بالقصيدة المولدية ؟ و ما هي الخلفيات التاريخية التي مرت بها ، حتى صارت كلا متكاملا ؟ ، و ما هي أهم الخصائص الموضوعية التي ميزت القصيدة المولدية في المغرب ، و في شعر الثغري التلمساني أنموذجا ؟.

الكلمات المفتاحية : المولد النبوي ، القصيدة المولدية ، الثغري التلمساني ، المغرب العربي القديم ، المديح النبوي

Abstract:

Speaking about the « Mawlidiyat » imposes itself on the learner of Moroccan literature, because it is one of the poetic arts that spread in the orient and Maghreb countries and for that they represent the homeland of origin for this genre which is of focal concern to many poets, who recite their poems on the occasion of the Prophet's birthday, similar to the poet Abi Abdullah Muhammad bin Yusuf Al-Qaisi Al-Andalus Al-Thaghri Al-Tlemceni, adopting, therefore, a new sophisticated style in the poems of praise that attracted for years the interest of many critics and researchers .

Through this article , we expressed our desire to return to excavating this ancient Moroccan heritage, and researching it, we have tried hard to examine the history of the emergence of this poetic art, and the stages it passed through. So , we presented a set of problematics that the article seeks to answer , the most important of them that bfigure prominently: What is the mawlid poem? And what are the historical background that passed through it until it became an integrated whole?And what are the most important objective characteristics that distinguished the « Mawlidiya poem » in Morocco, and in the poetry of Al-ThaghriTlemceni as a modal?

Key words: Al-Mawlid Al-Nabawi, Mawlidiya Poem, Al-Thaghri Al Taghsani, The Old Arab Maghreb, The Prophet's Praise

[1] - المؤلف المرسل: خولة ميسي البريد الإلكتروني: **k.missi@univ-soukahras.dz**

مقدّمة:

ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي هي من أقدم المناسبات المهمة، التي كان يحتفي بها سلاطين المغرب منذ عهود خلت من تاريخ المغرب العربي القديم، وقد تنافس الشعراء في بلاطاتهم فجادت قرائحهم بابتهالات دينية وترانيم شعرية تطرب بها القلوب، وتسحر من لبّها العقول. فتفنن ذوي السلطان في الترحيب بهذا اليوم المشهود والمعلوم، لتتزين قصورهم بأبهى الديباجات، ويتأهب سلاطينها وحاشيتهم وعلماؤها وشعراؤها وحتى العامة، لاستقبال يوم مولد الرسول الكريم _ص_ ، فيكون لهذا اليوم اجتماع مخصوص توارثناه جيلا بعد جيل. فما هي أهم المحطات التاريخية التي مرت بها القصيدة المولدية ؟ وما هي أهم الخصائص الموضوعية التي ميزت هذا الجنس الشعري دون غيره، وفي شعر (الثغري التلمساني) خاصة؟

وقد جاءت عناوين المقال الكبرى والفرعية لتعرف بهذا الجنس الشعري العريق والمهم في تاريخ الأدب المغربي القديم، وتبين أهم المحطات التاريخية التي مر بها الاحتفال بالمولد النبوي على عهد سلاطين المغرب، والذين تنافسوا فيما بينهم لإخراجه في أبهى حلة؛ من حيث الاستعداد له و كذا التأريخ له باستدعاء شعراء القصيدة المولدية إلى بلاطهم، وتفننهم في نظمها، وإجزال العطايا لهم. وقد اشتهر (الثغري التلمساني) بهذه النحلة، فتفنن في فنون القول، حتى عد شعره ابتهالات دينية اقتدى بها من جاء بعده من الشعراء، لتنماز قصائده المولدية بمجموعة من الخصائص الموضوعية التي يسعى هذا المقال لاستجلائها من ديوانه المطبوع.

1. القصيدة المولدية:

وهي قصائد تُلقى في ليلة مولد الرسول – ص– «**وتحتوي على مدح الرسول – ص– ومدح الأمير، الذي ينتظم حفل المولد بأمره أو بحضوره** »[1]وقد عرّفها (لسان الدين بن الخطيب) بقوله إنها: «**القصائد المنظومة في مدح رسول الله – ص– والإشادة بميلاده، وذكر معجزاته، ثم التخلص إلى مدح السلطان، وذكر خلاله، وإطراء تحفيه بهذه الدعوة**»[2]وتتضمن القصيدة المولدية خصائص معينة لابد للشاعر أن يمر عليها، فيذكرها في شعره، وهي: « **المقدمة، ومدح السلطان، والتوسل أو المناجاة، والخاتمة. وقد تستفتح المولدية بمدح الرسول –ص– مباشرة، فتستغني بذلك عن أنواع التقديم**»[3]هذا الأخير عادة ما يكون وقوفا على الأطلال، أو نسيبا محتشما يلزم حدود اللياقة. ومن المولديات التي بالغت في الوقوف على الأطلال، قول ابن سودة الطيب:

«وَلَقَدْ أَقَمْتُ عَلَى الرُّسُومِ كَأَنَّنِي طَلَلٌ تَقَادَمَ رَسْمُـــهُ المَسْئُولُ
أَسْتَفْهِمُ الأَظْعَانَ عَـــنْ رُكْبَانِهَـــا وَ أُسَائِلُ العَرَصَات وَهِيَ طُلُولُ »[4]

---

(1) – عبد الحميد عبد الله الهرامة: القصيدة الأندلسية، ج1، ط2، دار الكتاب، طرابلس، 1999، ص 348.

(2) – المرجع نفسه، ص 348.

(3) – المرجع نفسه، ص 348.

(4) – عبد الحميد عبد الله الهرامة ، القصيدة الأندلسية ، المرجع السابق، ص 348.

2. ظاهرة الاحتفال بالمولد الشريف:

لم يحتفل الرسول – ص– بعيد مولده، كما يصنع الأباطرة والملوك والرؤساء، وكذلك لم يحتفل الخلفاء الراشدون بمولده بعد وفاته؛ وفي عهد بني أمية لم يجر الاحتفال به أيضا، لأنه كان عهد فتوح واسعة وإخماد لنار الصراعات والثورات.

بينما راجت في المشرق إبان العصر العباسي ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، ولقيت عناية خاصة في بلاط الدولة الفاطمية العلوية في مصر، لتسن على عهدهم كسنة حميدة اتّبعها الخلف، ولم يكن في مثل هذه الاحتفالات ضرر، إذ كانت لنشر التقوى ولفائدة الناس. فأحب العامة وضع سيرة للرسول – ص–. أما في إربل و المغرب فقد أولى سلاطينه حفاوة بالغة بهذه المناسبة من خلال : إقامة المآدب ، و عقد جلسات ذكر صوفية ... ، ليكون هذا العهد من العهود الذهبية التي أولت اهتمامها الكبير بالاحتفال بخير الأنام – ص– ،على خلاف ما كان معمولا به في بلاد الأندلس والغرب الإسلامي عامة، فلم يحتفل سلاطين المغرب الأقصى بالمولد الشريف، حتى مجيء السلطان أبي العباس أحمد المنصور العزفي صاحب سبتة– تولى الملك في أواخر ق 10هـ–فلم يخرج عن ما كان يجري بالمغرب و اقتدى بهم في الاحتفال بمولده—ص– .

أما العصر المريني، أو بني زيان*، فقد عدّ السلطان يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق المريني أول من اعتنى بالاحتفال بالمولد النبوي، ففي سنة 671 هـ /1272م أمر بعمل «**المولد النبوي وتعظيمه والاحتفال به وصيره عيدا من الأعياد في جميع بلاده** » [5]وسار سلاطين بني مرين بعد ذلك على هذه السنة من الاحتفالات بالمولد النبوي.

في المقابل نجد عبد الله حمادي في كتابه دراسات في الأدب المغربي القديم قد أرجع أولية الشعر المولدي إلى أهل المغرب، والفضل يعود إلى أول من نظم القصيد المولدي ألا وهو أبي عمر الشقراطيسي؛ حيث يقول: « **ومن أحسن ما قيل في ذلك اليوم العظيم ويدخر ثوابه عنه نبي الله الكريم أبيات الشقراطيسي في مدح خير البرية وشرف وكرم. جاء في مطلعها قوله:**

الحَمْدُ لِلَّهِ مِنَّا بَاعِـثُ الرُّسُـــلِ هَذِيْ بِأَحْمَدُ مِنَا أَحْمَـدَ السُّـبُلِ
خَيْرُ البَرِيَةِ مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَـضَرٍ وَأَكْرَمُ الخَّلْقِ مِنْ حَافٍ وَمُنْـتَعِلِ »[6]

ودليله في ذلك الرحلات التي قام بها سكان المغرب والأندلس إلى الديار المقدسة؛ حيث يقول: « **وقد اعتنى الرحالة الأندلسي العبدري بقصيدة الشقراطيسي وأثبتها برمتها وأثنى على صاحبها؛ شأنه في ذلك شأن الرحالة الجزائري ابن**

* – دخل بنو عبد الواد المغرب الأوسط في غضون هذا الاندفاع الزناتي العام على بلاد المغربين الأوسط والأقصى؛ نتيجة ضعف صنهاجة ومصمودة وفراغ البلاد ممن يحميها من الغزاة. وكان بنو حفص الذين انتهزوا فرصة هذا الفراغ؛ فبسطوا سلطانهم على شرقي المغرب الأوسط واحتلوا بجاية وإقليم الزاب، ووصلوا بحدودهم إلى المجرى الأعلى لنهر شلف. أما بقية المغرب الأوسط، من وهران عند مصب نهر شلف إلى مجرى نهر الملوية وقاعدته تلمسان فقط بقى منطقة فراغ مفتوحة أمام الزناتيين. في هذا الفراغ امتدت واستقرت وتوسعت مجموعة قبائل بني عبد الواد أو بني زيان، نسبة إلى منشئ دولتهم يغمراسن بن زيان. دام حكمهم من 1236 م–1550م .

[5] – محمد عيسى الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلسي في العصر المريني، ط1، دار العلم، الكويت، 1985، ص 3.

[6] – عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم، ط1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1986، ص237، 238 .

عمار الذي أثبتها بدوره كاملة... وراح يحشدنها أقوال المعجبين بها من أمثال الأديب المصري أبو عبد الله الذي قال في حقها وهو بصدد تخميسها. إنها يئست من معارضتها الأطماع »[7]أما عن السبب الثاني الذي أدى إلى ظهور ما يعرف بالقصيدة المولدية في البلاد العربية الإسلامية هو «**أسبقية شعر التهليل بكرامات الرسول – ص– يوم ميلاده ومن هذا المنطلق تعتبر قصيدة الأديب التوزي بحق فاتحة عهد جديد لغرض سيعرف بالمولديات...**»[8]وعلى غرار سلاطين فاس، اجتهد بنو زيان في احتفالهم بالمولد الشريف، فتفننوا في الاستعداد له، كما برعوا في القول فيه، واللافت للنظر أن هذا اللون من الشعر، قد برع فيه السلاطين والوزراء والأطباء... ولم يكن موجها لفئة الشعراء فقط.

فمما روي عن تفاصيل الاحتفال بالمولد النبوي– على عهد الدولة الزيانية– أنّ السلطان القيم على الاحتفال كان يفتتح مراسيمه بقصيدة مولدية تكون من تأليفه، ثم يتوالى تباري القصائد بين الشعراء الذين استعدوا لهذا اليوم ، وكان أشهر سلاطين الدولة الزيانة عناية بهذه الذكرى أبو حمو موسى الثاني[**] ، و قد اكتسى الاحتفال على عهده « **حلة جميلة و طابعا شعبيا ورسميا منذ توليه العرش الزياني سنة 760هـ/ 1359م لأنه عاش في مدينة فاس وتونس وفي الأندلس وشاهد الاحتفالات الشعبية والرسمية بها**»[9]ويروى عنه أنه كان يفتح قصره للعام وللخاص، فيجمع فيه أهل العلم والفضل وعامة الناس من سكان تلمسان، بعد أن يكون قد حث حشمه على تزيينه بأحلى زينة، ليشهد ذكرى مولده – ص– حظوة خاصة عند أبي حمو « **الذي كان يشرف على هذه الاحتفالات بنفسه، ويقيم لها بقصره عرسا من الزينة والجمال؛ فما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، ومشامع كأنها الأسطوانات القائمة على مراكز الصفر المموهة**»[10] وقد أكثر الثغري التلمساني من ذكره في شعره، فأشاد بكرمه وعزه وجاهه، ومدح أيامه التي أحياها في ذكرى المولد النبوي؛ وهو – في شعره– لم يستثن مدح ابنه أبي تاشفين الثاني 791– 795هـ/1389–1393م، الذي سار على هدي أبيه في احتفاله بهذا اليوم المبارك، وخاصة أنه أوصاه بذلك، فعمل بوصية أبيه وزاد عليها احتفاله باليوم السابع للمولد.[11]

---

(7) – عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم، مرجع سابق، ص 238.

(8) – المرجع نفسه ، ص 241 .

** – السلطان أبو حمو موسى الثاني، تولى الحكم سنة 760هـ/1459م ثم نفي سنة 761هـ/ 1359م، ثم عاد إلى العرش وظل فيه إلى سنة 773هـ/ 1371م، ثم عزل وعاد إلى العرش سنتي 785هـ وتوفي سنة 789هـ/ 1387م. هنا يدخل بنو زيان في الدور الأخير، لأن قوتهم الأصلية كان أمرها قد وهن، وأصبح عمادهم من الآن فصاعدا على من يستطيعون الاعتماد عليهم من العرب الضاربين في نواحيهم أو من بني مرين، وأصبحت بلادهم نهبا موزعا بين بني حفص حينا وبني مرين في معظم الأحوال. لهذا كان همُّ أبي حمو موسى الثاني المحافظة على السلطان في تلمسان ومن حولها، معتمدا على العرب الهلالية، وقد اعتمد أبو حمو أول الأمر على قبائل عامر بن حامد أبناء شيجر، وكانوا من أنصار البيت الزياني، واعتمد أبو حمو كذلك على قبائل المعقل، وكانت أعدادهم غفيرة في إقليم تلمسان، وأعانه في ذلك وزيره أبو مسلم. وقد امتلأت أيام أبي حمو بالحروب، ولسنوات قليلة من حكمه تراخت قوى العرب الذين كانوا يؤيدون البيت الزياني = ابن الأحمر: تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تح: هاني سلامة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، 2001، ص 34.

(9) – محمد قويسم: <الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في منطقة تلمسان خلال العهد الزياني > ،مجلة الحوار المتوسطي، ع15–16، 2007،ص 512.

(10) – حسيبة عمروش: <شعر المولديات و المديح النبوي في البلاط الزياني> ، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية و التاريخية، مج 8، ع1، 2007، ص 286 .

(11) – المرجع السابق، ص 514 .

وفي ظل هذه الظروف، المحفزة على قول الشعر المولدي، تنافس كوكبة من الشعراء والأدباء للقول في هذا الفن، فنظموا قصائد عمودية مولدية ومدائح نبوية وموشحات، نذكر منهم:الثغري التلمساني، وهو أبرز الممثلين لهذا الحدث في قصائده المولدية، يقول في موشحة له:

« بِاللَّيْلِ الإِثْنَيْنِ اَفْتَخِرْ * بِالبَدْرِ الطَالِعُ مِنْ مُضَرْ * فِيْ لَيْلَةِ يَوْمِ اِثْنَيْ عَشَرْ .

مِنْ شَهْرِ رَبِيْعِ المُشْتَهِرْ * بِالمَوْلِدِ فَهُوَ بِهِ عَلَمْ » [12]

3. تنافس الشعراء في ذكرى الاحتفال بالمولد النبوي:

استقى الشاعر معجمه الشعري من حبه للرسول –ص– وشوقه لزيارة روضته الشريفة، ونوال شفاعته، والسير مع الركبان الراحلين لزيارة البقاع المقدسة... ومواضيع أخرى تحمل معاني سامية ونورانية عن شخصية النبي – ص– فاستغل الشعراء ليلة مولده لكي يفجروا هالة التقديس التي تفيض بسر مكنوناتهم، وخاصة أن سلاطين بني زيان لم يعطلوا ملكة الشعراء، ودفعوا بعجلة العلم والأدب، فكانت بلاطاتهم قبلة لهم، فلما تقلد أبو حمو الثاني زمام الحكم، فتح قصره لأهل العلم والفقه « **ولعل أهم ما ميز عهده ومجلسه على الخصوص، احتفاله بليلة المولد النبوي الشريف،التي كانت قد ظهرت في عهده، فكان يقيمها في بلاطه بقصر المشور، وكانت عبارة عن مجالس أدبية، تعد من أجلِّ المجالس وأقدسها** »[13]وقد عرف عنه تمكنه من ناصية الأدب، فقد كان من المجيدين في شعر المولديات، يفتتح مراسم الاحتفال بالمولد النبوي بقصيدة من إنشاءه.

يقول أبو حمو موسى بهذه المناسبة واصفا ولعه وشوقه لزيارة البقاع المقدسة، وما أصابه من سقم أحاط بجوانحه، وطال جسمه بتباريح الألم، في سبيل وصوله للكعبة الشريفة، وقيامه بمناسك الحج، وقد ألقى هذه القصيدة في ليلة المولد سنة 760هـ/1359م:

«قَلْبِي اِنْفَطَرَا وَالدَّمْـعُ جَرَى وَالرَّكْبُ سَرَى نَحْوَ العَلَمِ
سَـرَتِ الإِبِلُ لَمَّـا اِرْتَحَلُوا قَلْـبِي حَمَلُوا فِي رَكْبِهِـمِ
حَمَلُوا خُلْدِي أَفْنُـوا جَلْدِي تَرَكُوا جَسَدِي رَهْنَ السَقَمِ »[14]

وبعد فراغه من إنشاد قصيدته، يتبارى الشعراء في مدح الرسول الكريم بأجزل الألفاظ، وأجمل الصور، فيغلب على الجو نفحات روحانية، يشيد فيها الشعراء بذكرى مولده، في جو بهيج تتعالى فيه أصوات الشعراء بالمدائح والأذكار النبوية «**وتضرب قصيدة الشاعر الفقيه أبي محمد عبد المؤمن بن يوسف المديوني مثلا بارعا في هذا الاتجاه، يقول**

[12] – أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي الثغري: ديوانه، تحقيق: نوار بوحلاسة، منشورات مخبر الدراسات التراثية، جامعة منتوري قسنطينة، ص 92 .

[13] – هادي جلول: <الحركة العلمية في حاضرة تلمسان و عناية السلطة الزيانية بها ق8و9هـ/14و15م>، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية و الإنسانية ، ع19 ، 2018 ، ص 81 .

[14] – حسيبة عمروش :< شعر المولديان و المديح النبوي في البلاط الزياني > ، مرجع سابق ، ص 294 .

فيها:

مَدْحُ النَبِـيِّ المُصْطَفَى العَـدْنَانِ هُوَ عُدَتِي لِقِيَامَتِـــي وَ كَفَانِ
صَيَّرْتُهُ شُغْلِي وَ غَايَـةَ مقْصـدِي حَتَّى جَرَى بِجَوَانِحِي وَ جِنَانِ
لِمَ لاَ وَ هُوَ خَيْرُ العَبَادِ المُرْتَضَى وَ أَحْلَى مِنْ وَطْءِ الثَّرَى بِبَنَانِ »[15]

شكلت قدسية هذا اليوم العظيم دفعا لشاعرية الشعراء، فقد جادت قريحتهم – في بلاطات السلاطين الزيانيين- بفنون القول والذكر والمدح، فبتوالي السنوات التي أحيا فيها الحكام مراسم الاحتفال، حاول الشعراء تجديد صورهم وتشبيهاتهم وقوافيهم... أما ما كان على مستوى الموضوعات فلم يجدد فيها الشاعر، فهيلم تخرج جميعها عن الوقوف بالأطلال والنسيب الرقيق، والتشوق إلى الأماكن المقدسة، ومدح الرسول –ص- ومدح السلطان.

ليخلد شعرهم حدثا تاريخيا مهما، دأب عليه سلاطين الدولة الزيانية، كما نقل لنا أحاسيسهم الجياشة تجاه شخصية الرسول –ص- ورغبتهم الشديدة في نوال شفاعته، فتوجهت أنظارهم إلى الديار الكريمة: مكة وطيبة والحجاز، عازمين شدّ الرحال إليها والتمسح بأركانها، لعل الله يغفر ذنوبهم « **ولطبيب الدولة محمد ابن أبي جمعة التلاليسي قصيدة موشحة بمناسبة المولد النبوي الشريف لسنة 767هـ/1366م، يذكر فيها شوقه لزيارة قبر النبي المصطفى، ويزداد شوقه حين يرى جموع الحجيج متجهة نحو مكة المكرمة، كما يصور معاناته جراء هذا التشوق:**

مُذْ جَدَّ فِي السَيْرِ نَاسٌ إِلَى خَيْـرِ الأَنَامِ وَعَاقَبَنِي وِزْرِي يَا صَاحِ عَنْ ذَلِكَ المَقَامْ
وَسَارَتْ الأَظْعَانُ يُجْدِي بِهَا فِي السَحَرَ فَاسْتَبْشَرَ الرُكْبَـــانُ بِقُرْبِ نِيـــلِ الوَطَرْ
يَاسَعْدَاهُ مَنْ زَارَ قَبْرَ النَبِي المُصْـطَفَــى مُحَمَدُ المُخْتَارُ قُطْـبُ المَعَالِي وَ الوَفَـا »[16]

4. الخصائص الموضوعية في شعر مولديات الثغري التلمساني:

وباعتبار أن الثغري التلمساني من أهم شعراء البلاط – خلال عهد الدولة الزيانية – ومن الذين برعوا في هذا الشعر، فقد كان أكثرهم تمثيلا واستجابة لمراسيم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وقد حفظت لنا قصائده في مولد الرسول –ص- مديحا لسلاطين الدولة الزيانية، نخص بالذكر السلطانَ أبا حمو، الذي اشتهر بعنايته بهذا الاحتفال الكبير، فجعله محط تنافس بين الشعراء كمنافسة أبي زكرياء بن خلدون للقيسي[***] ؛ « **ولعل عامل التنافس هذا كان له دوره الإيجابي في تنشيط مسار المولديات، وهو حدث فريد من نوعه قد عرف ترعرعا وعناية في كفالة السلطان الشاعر أبي حمو الزياني الذي جعل هذه المناسبة طقسا خاصا لم تعرفه بقية الممالك المجاورة. الأمر الذي أوقع الشعراء في مطب. وإن شئت أمام اختبار**

---

[15]– حسيبة عمروش :< شعر المولديان و المديح النبوي في البلاط الزياني > ، مرجع سابق ، ص 288 .

[16] –المرجع نفسه ، ص 294 .

[***] – القصة مثبتة في كتاب عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم، مرجع سابق، ص 261 .

ذاتي يكمن في مدى توهج آثار مثل هذه الذكرى، ومدى استجابة القريحة الشعرية لها »[17]مما يدعونا للبحث عن المضامين التي حملها الشاعر موضوعاته، التي ميزته عن باقي الشعراء، الذين برعوا في قول مثل هذا الشعر.

1.4 الشوق والحنين لزيارة قبر الرسول –ص–:

ورد للثغري مجموعة من القصائد في ذكرى مولد المصطفى –ص– يشكو فيها شوقه وحنينه لزيارة الروضة الشريفة، وهي تأتي عادة في مفتتح القصائد، كقوله:

« لَوْلاَ هَوَى ذَاتَ الجِنَابِ السَامِي مَا شَمِلْتَ ثَغْرَ البَارِقِ السَامِ .
بَـرْقٌ يُعَـارِضُـهُ الفُؤَادَ إِذْ أَبـْـدَا مَا مِنْ خَفْقٍ دَائِمُ وَ خَـرَامِ .
فَرِيْضَـةٌ يُذْكِـي الجَوَى بِجَوَانِحِـي مَهْمَا تَأَلَقَ فِيْ مُتُـونِ غِمَامِ .»[18]

وقد ارتبطت – في العادة – هذه المشاعر بوصفه، لتعلقه الشديد بمكة وبالبقاع المقدسة، ليجعل من أحاسيس التوق لترابها تراتيل يتغنى بها في شعره، فيذكر فريضة الحج وموسمه الذي هو أسمى غاياته، قائلا:

« وَانْهَضْ لِمَغْنَى رَسُولِ اللهِ تَحْظَ بِمَـا تَشَاءُ مِنْ خَيْرِ أَوْطَـارِ وَأَوْطَـــانِ
وَ ارْكَبْ إِلَيْهِ جَـوَّادَ الجِـدِّ مُجْتَهِـدًا وَلاَ تَكُنْ فِي السَرَى وَ السَيْرِ بِالْوَانِي
يَا مُزْمِعَ السَيْرَ نَحْوَ المُصْطَفَى عَجِـلاً يَحْدُو إِلَيْـهِ بِأَحْـدَاجٍ وَأَظْعَـانِ
بَلِـغْ تَحِيَـةَ مُشْتَاقٍ لِـرَوْضَتِـهِ إِنَّ الطَلِيْقَ يُؤَدِي حَاجَـةَ العَانِـي
وَإِنْ رَأَيْتَ المُصَلَى قِفْ وَحَالِيْ صِفْ الجِيْرَة بِالحِمَـى هُمْ خَـيْرَ جِيْـرَانِ
وَقُلْ لَهُـمْ ضَاعَ قَلْبِـي فِي رِحَالِـكُمْ فَسَـاعَدُونِـي وَلَوْ قِيْـلاَ بِنَشَـدَانِ
فَمَـا وَجَدْتُ سِوَى وَجْـدٍ أُكَابِـدُهُ لاَ فَقَدْتُ سِوَى صَبْرِي وَسَلْوَانِيْ »[19]

وقد يستغني الشاعر عن مثل هذه المقدمات بحكمة بسيطة تكون بداية لقصيدته المولدية، تكون عادة خلاصة تجربة عاشها عن الحياة الفانية؛ فيقول معبرا عن صحوته من غفلته معاتبا نفسه التي تمادت في طلب هواها:

أَقْصِرْ فَإِنَّ نَذِيـرَ الشَّيْبِ وَافَانِـي وَأَنْكَرَتْنِي الغَوَانِي بَعْـدَ عِرْفَانِ
وَقَدْ تَمَادَيْـتُ فِي غَـيْ بِلاَ رُشْـدِ وَالنَفْسُ تَأْمُرُنِي وَالشَـيْبُ يَنْهَانِي
فَقُلْتُ لِلنَفْسِ إِذْ طَالَـتْ بَطَالَتُـهَا مَهْلاً أَلَمْ يَأَنْ أَنْ تَخْشَـى أَلَمْ يَانِ
كَمْ مِنْ خُطَى فِي الخَطَايَا قَدْ خَطَوْتِ تُرَاقُبِي اللهَ فِي سِرٍ وَإِعْـلاَنِ

---

[17] – عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم، مرجع سابق، ص 262.
[18] – الديوان، ص 138.
[19] – المصدر نفسه، ص 153، 154.

وَلِمَ فَلاَ تَغُرَنَـكَ الدُنْيَـــا بِزُخْرُفِـــــهَا فِيَا نَدَامَةَ مَـنْ يَغْـتَر بِالفَانِـــي
فَلَيْسَ فِيْـهَا وِصَـــالٌ دُونَ هُجْـرَانِ وَلَيْسَ فِيْهَا كَمَالٌ دُونَ نُقْصَـــانِ
وَأَسْلُكَ سَبِيْلاً إِلَى التَقْوَى لِتَقْوَى بِهَا عَلَى السُلُوكِ إِلَى جَنَاتِ رَضْـوَانِ »[20]

ومن هذه الحقيقة المحتومة ، ينصح الشاعر كل إنسان بألا يغتر بهذه الدنيا وبما فيها من مسارَّات؛ لأن الله ليس غافلا عما يسرّ وما يعلن من خطايا وذنوب؛ وخاصة أن دنو الأجل قريب، وما الشيب إلا نذير على قربه، فلا سبيل للمرء غير التقوى، وأن ينتهي عما كان عليه من غيّ، حتى يحظى برضا الله و نوال الدار الآخرة .

2.4 التبرك بالبقاع المقدسة ومدنها:

لم يخف الشاعر وجده بالبقاع المقدسة أثناء تصريحه بنيته لأداء مناسك الحج، ولزيارة مدينة طيبة والحجازوالصلاة في روضة الرسول –ص– ، مصورا توقه لزيارة قبره ، و تصارع الأحاسيس في نفسه التواقة لاحتضان المكان ، بما يحمله من قدسية ؛ حيث يقول مناجيا:

«وَ لِلَّهِ قَوْمٌ عِنْدَمَـــا لِلْهَوَى دُعُـوا أَجَابُوا فَجَابُوا لِلْحِجَـــــازِ الفَيَافِيَا
هُمْ أَرَادُوا مَاءُ العَذِيْبِ ضَمَاءُهُـــمْ وَخَلَفَتْ مَصْـدُودَا عَنِ الوَرْدِ صَادِيَا
غَرِيْبٌ بِـغُـرْبٍ أَوْبَقَتْـــهُ ذُنُـوبَـــهُ فَأَصْبَحَ فِي أَسْرِ البَطَـــالَةِ عَانِيَـــا
وَكَمْ أَنَة لِي كُـــلَّ يَـــوْمٍ وَ لَيْلَـةٍ تَذُوبُ عَلَيْهَا قِطْـعَةً مِنْ فُؤَادِيَـــا
حَنِينًا وَ شَوْقًا لِلنَـــبِـــيِ مُحَـمَـدِ فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَنَالُ الأَمَانِـــيَا
وَأُبْصِرَ رَبْعَا حُـلَّةَ خَيْرَ مُـــرْسَـــلٍ وَأُلْثِمَ فِي مَغْنَـــاهُ تِلْكَ المَوَاطِـــيَا
وَأَسْجُدَ فِي التُرْبِ المُقَدَسِ سَجْدَةً وَأَنْوِي بِهَا جَـــبْرَا لَمَّا كُنْتَ سَاهِيَا »[21]

وقد امتزجت هذه المشاعر بأحاسيس التوق لمغفرة من الله وتوبة نصوح، معلنا مخالفته أوامر النفس وهواها، وأن يتخذ سبلا صارمة في ردعها، تلجم هيجانها وتماديها، إذ يقول:

« وَمَا النَّفْسُ إِلاَّ مِنْ أَعْدَائِكَ فَلْيَكُنْ عَزِيْمُكَ فِيهَا مَا يَسُوءُ الأَعَادِيَا
فَيَا نَفْسُ كَمْ تَهْوَى الهَـوَى وَتُطِعِـيهِ وَلَمْ تَنْتَهِ لِمَا اِرْتَكَبَتْ النَوَاهِيَا
فَفِي الرُشْـدِ لاَ تَزْدَادُ إِلاَ تَمَـــارِيَـا وَ فِي الغَيِّ لاَ تَزْدَادُ إِلاَ تَمَادِيَا »[22]

ولعل أغلب مولديات الثغري حوت هذه الابتهالات والتي تناغمت مع كامل القصيدة، لتكون خاصية بارزة في

[20] – المصدر نفسه، ص 153 .
[21] – المصدر السابق، ص 168 ، 169 .
[22] – المصدر نفسه، ص 168 .

مولديات الشاعر ومنها ينتقل إلى طلب شفاعة رسول الله – ص– لتكون الخاصية الثالثة التي برزت في شعره هي:

3.4 نوال شفاعته – ص– وذكر عظمته وتفرده:

لا تخلو مولديات الثغري التلمساني من تغنيه بمعجزاته –ص– وتفرده بها، كقصة الإسراء والمعراج، متوسلا إياه الشفاعة له – كما سبق وذكرنا– أثناء وقوفه للحساب على ما قدّم وأخرّ:

«مَدَّدْتُ يَدِي يَا ذَا المَعَارِجِ رَاجِـيًا وَأَصْبَحَـــتْ آمَالِي إِلَيْـكَ حَوَادِيَا
عَسَى جُودَكَ الفَيَاضِ يُدْنِي وَسَائِلِي وَيُنْشِـــي مِنَ العَفْوِ العَمِيمِ غَوَادِيَا
وَيَفْتَحُ لِي بَابًا إِلَى مَنْهَـــجِ التُّقِـي فَأَلْقَى التَّدَانِـــي يَوْمَ أَلْقَي التَنَـادِيَا
لَدَى مَوْقِفَ يَوْمَ الحِـسَابِ وَهَوْلُهُ يَوْمَ الوَرَى كَرْبٌ يُشِـــيْبُ النَوَاصِيَا
هُنَاكَ يُنَادِي اِشْفَعْ تُشْفَعَ مُحَـمَـد وَسَلْ مَا تَشَاءُ تُعْـطَ المُنَى وَ الأَمَانِيَا »[23]

ويقول أيضا مشيدا بمعجزاته عليه الصلاة والسلام:

« وَأَسْرَى بِهِ لَـيْلاً إِلَى حَـضْرَةِ العُلَى فَشَاهَدَ فِيْهَا كُـلَّ مَا كَـانَ خَافِيَـــا
سَـرَى رَاكِبًـــا ظَهْرَ البُـرَاقِ كَرَامَةً وَبَيْنَ يَدَيْهِ سَـارَ جِبْرِيْلٌ مَاشِيَـــا
دَنَا فَتَدَلَـــى قَـابَ قَوْسَـيْنِ رِفْعَـةً وَقُـــرْبًا فَأَمْسَى لِلْحَبِيْبِ مُنَاجِـيَـا
وَكَلَمَـهُ ظَبْـــيُ الفَـلاَ مُتَشَفِعًا وَحَـــنَ إِلَيْهِ الجِذْعَ بِالحَالِ شَاكِـيَا
وَفَـاضَ نَمِيْرُ المَـــاءِ بَيْنَ بِنَانِـهِ فَكَـانَ وَضُوءٌ لِلْكَتِيْـبَـةِ كَافِـــيَا
وَكَانَ لَهُ فِي الغَـــارِ إِذْ نَزَلاَ بِـــهِ أَبُوْ بَكْـرَ الصِّدِيْقِ بِالصِـدْقِ ثَانِـيَا
وَحَامَتْ حَوَالَيْـهُ الحَمَـامُ وَ شَيَدَتْ مِنَ النَسْجِ أَيْدِي العَنْكَبُوتِ مَبَانِيَـا
وَإِنَّ اِنْشِقَاقِ البَـدْرِ أَعْظَـــمَ آيَةَ يَعُودُ بِهَا جَيِـــدَ الهِدَايَةِ حَالِـيَا
وَكَـــمْ مُعْجِزً أَبْدَى النَّبِيَ مُـظَاهِرًا غَدًا فِي اِتِّضَـاحٍ لِلْصَبَاحِ مُضَاهِيَا
وَوَرَدَ الهُدَى لاَ يَهْتَـــدِي لِسَـبِيْلُهُ فَيَرْوِي بِهِ مَنْ كَانَ فِي البِدْءِ صَادِيَا
وَبَشِرْ رُضْوَانٌ بِمَوْلِـــدِ أَحْـــــمَدَ فَفَتَـحَ جَنَاتِ النَّعِيْمِ التَّمَانِـيَا »[24]

و بتتابع الأبيات، يسترسل الشاعر في إشادته بتفرد رسولنا الكريم بهذه المعجزات عن باقي الأنبياء والرسل، مبينا مكانته السماوية، وتقريب الله وتبجيله له عن سواه من الرسل؛ وهذا ما جعل أنبياء الله يتوسلون لله بنبينا محمد –ص– في دعائهم، فقد قال:

«وَآدَمُ لَمَّـــــا خَافَ يَجْرِي بِذَنْبِـهِ تَوسَـلَ بِالمُـخْـتَـارِ لله دَاعِيَـــا

---

[23] – المصدر نفسه ، ص 169.

[24] – المصدر السابق، ص 170، 171.

فَتَابَ عَلَـــــيْهِ وَ اجْتَبَاهُ وَ خَصَّـــهُ وَأَدْنَاهُ مِنْـهُ بَعْـدَ مَـا كَانَ نَائِيَـــا
وَقَدْ يَهْجُرَ المَحْبُوبَ فِي حَالِهِ الرِضَى وَيَأْبَى الهَوَى أَلاَّ يُصَدِّقَ وَاشِيَـــا
وَعَيْنُ الرِضَى عَنْ كُلِّ عَـــيْبٍ كَلَيْلَـةٍ وَلَكِنَّ عَيْنُ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا
وَأَدْرَكَ مُوْسَـى فِي المُنَاجَـاةِ رَغْبَـةً فَكَلَمَـهُ اللهَ العَظِـيْـمِ مُنَـاجِيًـا
وَمَا الرُسُـلُ إِلاَّ كَـالْمُبَادِيَ لِغَايَـةٍ هُوَ الغَايَـةُ القُصْوَى أَتَمَ المُبَادِيَا »[25]

فالشاعر يتوسل شفاعة الرسول –ص– يوم القيامة مسترسلا في ذكر سيرته، وفضله الذي خصه الله به على عباده وعلى باقي رسله، كيف لا وهو الحبيب المصطفى. والمتأني في قراءة مولدياته يلمس نفحات إيمانية صادقة المشاعر، تعكس صدق نبرته في مدح الرسول –ص– ومناجاته الدينية، التي ارتبطت بعواطف إيمانية تعكس تدينه.

4.4 مدح السلطان :

مدح الثغري التلمساني سلاطين المغرب في مولدياته، فقد كان من «**الشعراء الذين لازموا الاحتفال بهذه الليلة المباركة طيلة عهد أبي حمو الثاني، ثم ابنيه أبي تاشفين، وأبي زيان محمد 796هـ– 801. حيث كان ينظم القصائد الغراء ويلقيها بمناسبة هذا الاحتفال الكبير. فأكثر من مدح السلطان أبي حمو الثاني والإشادة بكرمه ونبله، وشجاعته، وعلمه، ولم ينقطع عن ذلك طيلة حياته** »[26] فمما أنشد قوله بعد أن مدح خير المرسلين طه، وذكر معجزاته، وتمسح ببقاعه المقدسة ومدنه الطيبة، طالبا شفاعته:

«عَنْ عَابِدِ الرَّحْمَانِ مَوْلاَنَا الذِّي حَازَ الفَضَائِلَ جُمْلَةً وَحَوَاهَا
.....
مَلِكٌ تَـقِرُ لَهُ بِكُـلِّ فَضِيْـلَةٌ كُلَّ المُلُـــوكِ وَ أَنَّـهُ مَوْلاَهَا
مَلِكٌ تَهَابُ الأُسْدُ سُوْرَةَ بَطْشِهِ وَلِعِزِّ سَطْوَتِهِ يـُذَلُ سَـطَاهَا
مَاضِي العَزَائِمُ وَ الظُّبْيُ فَسَوْفَهُ كَمُضَـائِهِ وَ مُضَاؤُهُ كَظِبَـاهَا
زَانَ الخِلاَفَةِ بِالمَكَارِمَ وَالنَـدَى وَحِمَى بِحَدِّ المَشْرَفِي حِمَاهَا
.....
إِنْ كَانَ مُوْسَى لِلْخِـلاَفَةِ بَدْرُهَـا فَالتَاشَفِينِي شَمْسُهَا وَضُحَاهَا
إِنْ كَانَ مُوسَى لِلْخِلاَفَةِ صَـدْرُهَا فَالتَاشَفِيْنِي قَلْبُهَا وَحُجَـاهَا
إِنْ كَانَ مُوسَى لِلْخِلاَفَةِ سُحْبُهَا فالتَاشفِيْنِي غَيْـثُهَا وَنَـدَاهَا
إِنْ كَانَ مُوسَى لِلْخِلاَفَةِ لَحْظُهَا فَالتَاشَفِيْنِي نُورَهَـا وَسَنَـاهَا »[27]

[25] – المصدر نفسه، ص171 .
[26] – المصدر السابق،ص 34.
[27] – المصدر نفسه، ص 164، 165، 166.

لنكون بذكر هذه الخاصية، قد أتممنا الحديث عن أهم الخصائص الموضوعية في شعر المولديات – بصفة عامة– و عند الثغري التلمساني – بصفة خاصة – أيام عهد سلاطين الدولة الزيانية.

5.خاتمة:

وفي ختام هذا المقال نخلص إلى مجموعة من النتائج التي توصلنا إليها بعد هذه الإطلالة الموجزة في تاريخ الأدب المغربي القديم، ونخص بالذكر شعر المولديات، الذي اهتم به المغاربة كفن وتقليد له تفاصيله الخاصة، التي سجل شعراؤه مكانتها الفريدة في قصور الملوك وبين أوساط الخاصة والعامة، على عهد الدولة الزيانية بالذات، وقد كان أشهر شعرائها الثغري التلمساني، الذي عدّ من أهم شعراء القصيدة المولدية في ذاك العهد، ومن بين ما توصلنا إليه من نتائج:

- أن القصيدة المولدية تتميز بخصائص ،هي : أنها تلقى في يوم مولده – ص– ويمدح فيها الشاعر السلطان القيم على الاحتفال به.
- أن الاحتفال بالمولد النبوي مر بمراحل تطور إلى أن اشتد عوده منذ العهد الفاطمي إلى غاية العهد المريني والزياني، الذي اجتهد في إحيائه وإخراجه في أبهى حلة سلاطين دولتها أبو حمو موسى الثاني وأبو تاشفين الثاني.
- أن تنافس شعراء الدولة الزيانية في قول الشعر المولدي نشط حركة شعر المديح النبوي، فبرع فيه كوكبة منهم، بل حتى الأطباء والفقهاء والكتاب وذوي السلطان، فجعلوا تلمسان على أيامها حاضرة للعلم والفن والأدب والشعر بامتياز.
- تفرد مولديات الثغري التلمساني بخصائص موضوعية ميّزت شعره جعلته يتألق في سماء بلاطات السلاطين، فكان الرائد بلا منازع في هذا الغرض الشعري حينها.

6. قائمة المراجع:

المجلات :

- مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، ع19، 2018.
- مجلة الحوار المتوسطي، ع15-16، 2007.
- مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج 8، ع1، 2007.

الكتب :

- أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي الثغري: ديوانه، تحقيق: نوار بوحلاسة، منشورات مخبر الدراسات التراثية، جامعة منتوري،قسنطينة، الجزائر.
- عبد الحميد عبد الله الهرامة: القصيدة الأندلسية، ج1، ط2، دار الكتاب، طرابلس، 1999.
- عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم، ط1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1986.
- محمد عيسى الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلسي في العصر المريني، ط1، دار العلم، الكويت، 1985.